ضياء الدين بن الأثير
ناقداً وأسلوبه النقدي

obeikandl.com

obeikandl.com

ضياء الدين بن الأثير ناقدا

تناولنا فيما سبق من هذا البحث أسلوب ضياء الدين بن الأثير ومنهجه فى الأدب والبلاغة والنقد، وطريقته فى الكتابة والإنشاء، وفى هذا الجزء الأخير من البحث نريد أن نتناول بالبحث والدراسة الجوانب المختلفة من النظريات والمسائل والقضايا النقدية والبلاغية التى تعرض لها ابن الأثير الناقد البصير، والكاتب الوزير فى مؤلفاته العديدة المتنوعة فى الأدب والنقد والتأليف.

رأى ابن الأثير فى آلات المؤلف:

فصاحبنا ابن الأثير الناقد الوزير يحدثنا عن المؤلف، شاعرا كان أو كاتبا، ناظما كان أو ناثرا، كما يحدثنا عن آلات المؤلف فى الكتابة أو النظم، وفى النثر أو الشعر، وهو لا يفرق بين الفنين كأنهما فى نظره يصدران عن منبع مشترك، ويجريان فى نسق متقارب لو لا بعض الفروق الشكلية والصورية، فيقوم أول ما يقوم فى حديثه عن هذه الآلات.. الطبع، أو الاستعداد الفطرى، أو الموهبة التى حبا الله بها الموهوبين من الشعراء والناثرين والكاتبين، والتى سماها هو " الفيض الإلهى " فيرى أن الشاعر أو الكاتب، والناظم أو الناثر يهتدى عن طريق الطبع أو الاستعداد أو الموهبة إلى المفاهيم والمعانى المخترعة أو الجديدة المبتدعة: " إن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها، لأن ذلك مما لا يمكن. ومن هاهنا أضرب علماء البيان عنه... وكيف تتقيد المعانى المخترعة بقيد، أو يفتح

إليها طريق يسلك، وهى تأتى من فيض إلهى بغير تعليم، ولهـذا اختـص بهـا بعـض الناثرين والناظمين دون بعض، والذى يختص بها يكون فذا واحدا يوجد فى الزمان المتطاول " [1] . فالطبع المواتى، والفطرة المساعدة هما الطريق إلى المعـانى الجديـدة المخترعة أو المبتكرة.

ولكن الطبع وحده، أو الفيض وحده لا يخرج شعرا ولا نثرا، فلابد لـه مـن محرك يحركه، ولا بد له من مثير يثيره ويعينـه علـى الاخـتراع والإيحـاء والاسـتلهام والابتكار، لأن موهبة الشاعر، أو إبداع الكاتب والناثر يشبه بنار الزناد التى تتطاير بالاحتكـاك والتحريـك، ومعرفـة آلات الكتابـة والشـعر كمعرفـة اللغـة وحفـظ النصوص مـن القـرآن الكريـم والحديـث الشـريف، والإلمـام بـالأمور دون الموهبـة والطبع لا جدوى لها بالضرورة، ولا فائدة منها على الإطلاق: " وذلـك لمـا يفتقـر إليه من الخوض فى كل فن، وملاك هذا كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثـم طبـع فإنـه لاتعنى تلك الأدوات شيئا " [2] .

فالأديب المطبوع والموهوب الذى حباه الله بفيضـه الكريـم شـاعرا كـان أو ناثرا تتموج فى فنـه المطبـوع روح الإبـداع والابتكـار، وبـالعكس تظهـر فـى فـن الأديب المتكلف وفى أدب غير المطبوع روح التكلف البارد، كما تظهر فيه مظاهر الصنعة الجافة، وكذلك تختلف درجات ظهور الموهبـة الإلهيـة، والمعرفـة بـالأدوات

---

(١) المثل السائر ١: ٣٤٥، طبعة نهضة مصر، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بـن الأثير وجهوده فى النقد .١٦.

(٢) المرجع السابق ١: ٧.

الكتابية والأدبية فى العمل الأدبى نثرا كان أو نظما، وذلك طبعا لاختلاف الموهبة، والملكة، والمعرفة، فالشاعر المطبوع العارف بالأمور والآلات يأتى شعره فى الدرجة العلياء، وفى المقام الأول فى السمو والارتقاء، كشعر كل من أبى تمام والمتنبى[1]، وقد أعجب بهما ابن الأثير أيما إعجاب، ومن هنا نراه يحفظ دواوين الشعراء الثلاثة.. أبى تمام والبحترى والمتنبى[2] " وغربلت الأشعار قديمها ومحدثها، وتأملتها تأمل المنتقد، فما وجدت لشاعر ما لهذين الرجلين[3] فى باب المعانى، ولا ما لأبى عبيدة البحترى فى باب الألفاظ، فمن قلدنى فى ذلك فقد أصاب، وطرح من نفسه ثقل الكشف ومؤنة التنقيب والتنقير، ومن خالفنى عن علم ومعرفة فليتأمل من الأشعار ما تأملته حتى يعلم ما علمته، وإن كان جاهلا بهذا الفن فليدرج من عشه فليس منه ولا إليه "[4].وقد عقد موازنة بين شعر أبى العلاء المعرى وشعر أبى تمام كنوع أو نموذج من المقارنة بين المطبوع والمتكلف، فقال:

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٣٣، والدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد: علم البديع نشأته وتطوره١٨.

(٢) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١٠، والمثل السائر ٢: ٢٦٩٩، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد٢٢، ٦١، ١٣٥.

(٣) يعنى أبا تمام والبحترى.

(٤) الاستدراك٢٨، والمثل السائر ٢: ٢٧٠، والوشى المرقوم ١٠، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد١٢٠.

" إن حسن هذا مطبوع، وحسن ذاك مصنوع "[1] . ولاشك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق. أما الشاعر أو الكاتب المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية، وذلك يضنى الخاطر فى طلبه... وغير المتكلف يأتى مستريحا من هذا كله... [2] . ومن يملك من الناظمين والكاتبين تلك القوة الخفية فهو صاحب الطبع المواتى الذى يكسب الأدب نظما كان أو نثرا الرونق المحبب، والروعة المرغوبة، والحياة المتجددة، وبغيرها يبدو الأدب البيانى متكلفا خاليا من الروح والحياة، ومن الروعة والجمال.

والأديب المطبوع شاعرا كان أو ناثرا يتميز بأن فنه يصدر عن النفس، ويخاطب دون كلفة، ويطرب له الإنسان لأنه يتلقى عنه أحاسيسه عارية دون حجاب، والمعرفة مع الطبع لها شأنها فى العمل الأدبى، ومن هنا نرى أن أبا تمام " هو إمام الناس شعرا ومعرفة بالشعر " [3] فالاطلاع الواسع على الأدب القديم والحديث، والتمرن علىتقليده – كما يدعو إليه ابن الأثير – من الأمور اللازمة للشاعر والكاتب فى نظره، لأن الشاعر والكاتب بواسطة هذا الاطلاع الواسع، يستطيع أن يعرف أهداف الناس وأغراضهم، ونتائج أفكارهم[4] الفنية والأدبية،

---

(١) المثل السائر، نقلا عن الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦١، بتصرف.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الاستدراك ١٩.

(٤) المثل السائر، نقلا عن الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦١،بتصرف.

وذلك لأن هذه الأشياء تُذْكِي الفطنة، وتَشْحَذُ القريحة، ويهذب الطبع[1] . ومن المعلوم أن خواطر الناس ومقاييسهم الذوقية تختلف فى الحسن والقبح فإن بعضها." لايكون عاليا على بعض،أو منحطا عنه إلا بشئ يسير، وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ، ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول"[2] .

ومن الأهمية بمكان أن يكون صاحب الصناعة الأدبية والفنية عارفا وعالما بالقرآن الكريم " لأن فيه فوائد كثيرة " [3]، كما يجب أن يكون عارفا بالأخبار النبوية، وهما فى الحقيقة أهم تلك الآلات الأدبية قاطبة[4] .

نظرية بن الأثير فى النص الأدبى وصياغته الفنية:

هذا هو رأيه بالنسبة إلى الطبع والصنعة، أو الموهبة والمعرفة، أما رأيه وكلامه عن النص الأدبى فإنه قد تكلم فيه عن الصناعة الفنية، وفصاحة الألفاظ المفردة، وعن تأليف حروف الألفاظ وتركيبها داخل إطارالتركيب اللفظى الفردى، وعن خصائصها الفنية والجمالية، والشاعر الحاذق هو الذى يوفق فى استغلال خصائص

---

(١) المثل السائر ١: ٨٢، الطبعة الثانية، دار الرفاعى بالرياض.

(٢) المثل السائر ١:١٨، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٢.

(٣) المثل السائر ١:١٩، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد١٦٣.

(٤) المثل السائر ١: ٨٤ – ٨٥، الطبعة الثانية، دار الرفاعى، الرياض.

الألفاظ وإيحاءاتها، ودلالاتها الإلهامية. ثم تكلم عن تأليف العبارة، وعن دلالة الألفاظ المؤلفة والمركبة على المعانى المختلفة، كما تحدث عن اختلاف هذه الدلالات فى مواضع التأليف والتركيب والتنسيق.

ومن المناسب أن تتفق الألفاظ مع معانيها من الناحية الصوتية، ومن ناحية تركيبها وتأليفها فى العبارة الأدبية " فالألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة رقيقة، ولكن منها موضع يحسن استعمالها فيه، فالجزل منها يستعمل فىمواقف الحرب، وفى القوارع والتهديد والتخويف " [1]، والمراد من: " الجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم، ولذاذته فى السمع "[2]، وليس المراد من: " الرقيق أن يكون ركيكا سفسافا، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس " [3] . ويجب على الشاعر أو الكاتب الابتعاد عن عيوب الألفاظ، وعيوبها غرابة الاستعمال، وثقلها على السمع، وكراهتها على الذوق، والتكرار الممل [4] .

---

(١) المثل السائر ١: ١٦٨، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٨.

(٢) المثل السائر ١: ١٦٨، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٨

(٣) المرجعين السابقين.

(٤) المثل السائر ١: ١٦٣، والدكتور محمد زغلول سلام ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٨.

والذى يؤخذ [1] على ابن الأثير فى هذا المقام أنه لم يتعرض كما تعرض ابن طباطبا فى كتابه عيار الشعر – للعمل الأدبى فى مراحله الأولية، ويبدو أنه لم يدرك الصلة بين المعنى الأولى الذهنى وبين التعبير اللفظى بعد اختمار الفكرة الأدبية فى الذهن، ولكنه حاول كغيره من النقاد السابقين الفصل بين اللفظ والمعنى. ويرى ابن الأثير أن الشاعر إذا قال شعرا، أو أنشد نظما فينبغى له أن يعيد النظر فى شعره ونظمه حتى يستقيم له شعره ونظمه بالتعديل والتبديل والتثقيف. وكأن العمل الأدبى فى نظره ومفهومه يتم على مرحلتين.. الأولى هى مجرد التعبير عن المعنى والتجربة بألفاظ وعبارات كيفما اتفقت، والمرحلة الثانية هى القيام بتهذيب هذه الألفاظ والعبارات وتثقيفها حتى يبرز المعنى المراد، أو التجربة المقصودة، والفكرة الأصلية فى صورة كاملة تتمتع بالموازنة الكاملة بين اللفظ والمعنى، وعلى هذا فإن هناك تعبيرات عادية وأخرى مزخرفة ويقصد ابن الأثير بهذا النظر محاولة الوصول بالشاعر من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية من التعبير الشعرى، أو الصورة الشعرية، ولا يكتفى بالتعبير الأولى فى المرحلة الشعرية الأولى، وذلك كله ليتسنى للشاعر إدخال الزخرفة اللفظية والموازنة الدقيقة، والتناسب المواتى بين الألفاظ والكلمات فى العبارة الأدبية والفنية.

---

(١) الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة ماجستير غير مطبوعة، رقم٢٢٦٢، مكتبة جامعة القاهرة، والصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، رقم ٢٢٦٧، مكتبة جامعة القاهرة.

وقد فسر بعض النقاد فى العصر الحديث الفرق بين الصيغتين، فقالوا: إن الصيغة الأولى هى التعبير الفطرى، أو التعبير الشعرى للشاعر، وأما الصيغة الثانية فهى التعبير البلاغى أو البيانى المزخرف الذى يحاول الشاعر فيه الوصول إلى ما يريد الوصول إليه من جمال التعبير الفنى[1] والأدبى الرائق.

ومن المعروف للجميع فى باب التعبيرات الفنية أن هذا هو مذهب الشاعر الجاهلى زهير فى حولياته الشهيرة حيث كان يعيد النظر فى قصائده الحولية بغرض التعديل والتبديل بربط الألفاظ بعضها ببعض، وبغرض ربط تلك الألفاظ بالمعانى ربطا دقيقا محكما.

رأى ابن الأثير فى خصائص الألفاظ والمعانى:

وفى عمل الشعر والكتابة، أو التجربة الأدبية يدافع ابن الأثير عن خصائص كل من الألفاظ والمعانى المنفصلة أو المستقلة التى يمكن اعتبارها ومراعاتها فى العمل الفنى أو التجربة الشعرية، لأن الألفاظ تثير فى الطبائع الأحاسيس والانفعالات المختلفة، وللإيحاءات اللفظية – كما هو معروف – دورها الخطير فى النفس البشرية، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ والرمانى وغيرهما من النقاد العرب السابقين. ولذلك فقد قام ابن الأثير بعرض خصائص اللفظة المفردة، واشترط أن تكون فصيحة، وأن تكون حروفها متناسبة المخارج، وألا تكون ثقيلة على

---

(١) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٤ – ١٦٥.

اللسان، وألا تكون كذلك صعبة مستغلقة، يقول: " وقد رأيت جماعة من مدعى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذى يعز فهمه، ويبعد مناله، فأذا رأوا كلاما وحشيا غامض الألفاظ يعجبون به، ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضد من ذلك، لأن الفصاحة الظهور والبيان، لا الغموض والخفاء "[1] .ويشترط ابن الأثير بالإضافة إلى ذلك أن تكون الألفاظ سهلة ميسورة مألوفة لتقع معانيها قريبة من أفهام الناس. وكذلك ينبغى أن تتفق معانى الألفاظ مع أصواتها وتراكيبها، فالألفاظ تنقسم إلى جزلة ورقيقة، فالقسم الأول يناسب استعماله فى مواقف الحروب والتهديد والتخويف وأشباه ذلك، ويحسن استعمال القسم الثانى فى الموضوعات الرقيقة واللطيفة[2]، وقدمر ذلك آنفا[3] فارجع إليه إن شئت.

ويرى ابن الأثير الناقد البصير أن بعض الألفاظ تحمل فى النظم عند التركيب الشعرى أو النثرى خصائص فنية معينة تشملها هالة من المعانى والظلال والإيحاءات والإيماءات، بالإضافة إلى مدلولها المباشر الاصطلاحى أو اللغوى، ويرى أن استعمال الألفاظ فى معان مجازية هو الذى يكسبها فىالغالب تلك الإيحاءات والظلال، وقد تأتى الألفاظ على معان حقيقية ولكنها توحىمن المعانى المثيرة العجيبة مالا تحملها كلمات وألفاظ أخرى من اللغة العربية. والأديب القدير،

---

(١) المثل السائر ١: ٦٨٨.

(٢) المثل السائر ١: ١٦٨، وضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد١٦٨.

(٣) راجع ص٦٧من هذا البحث، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٨، والمثل السائر١: ١٦٨.

والشاعر الموهوب، والكاتب البارع هوالذى يستطيع بموهوبته الإلهية، وبراعته الأدبية، ومهارته الفنية استغلال تلك الخصائص الفنية التى تحتفظ بها تلك الألفاظ والكلمات كما استغل الشاعر العربى خصائص كلمتى " كل حاجة " فى قوله:

ولما قضيا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

قال ضياء الدين الأثير: " إن فى قول هذا الشاعر " كل حاجة " ما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والمتعة ما لا يستفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة، فمنها التلاقى، ومنها التشاكى، ومنها التخلى للاجتماع... إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون له "[1] .

فصاحبنا ابن الأثير يرى أن كلمتى " كل حاجة " تقومان بأداء تلك الإيماءات والإيحاءات المختلفة، والظلال الجانبية الرائعة التى تحتفظان بها فى هذا التركيب.. من التلاقى بين الحبيبين، والتشاكى بين العشيقين، وكذلك التخلى بين السميرين للاجتماع والسمر، وغير ذلك من الإيحاءات والإيماءات المعروفة بين أهل النسيب.

ومن تلك الألفاظ الموحية ذات الظلال والإيحاءات والإيماءات المختلفة ما اطلق عليه " جوامع الكلم " وذلك لتضمنها من المعانى ما لا تتضمنها أخواتها فى مثل تلك المواقع لأن مثل هذه الألفاظ " تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز استعماله فى مكانها مثل قول النبى ﷺ: " بعثت فى نفس الساعة "[2] وقد

---

(١) المثل السائر ١: ٥.

(٢) المثل السائر ١: ٥٠، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٩.

تكلم ابن الأثير عن أثر تلك الألفاظ الموحية فى نفسه فقال: " وكنت إذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين يلوح لى فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر، وطربا كطرب الألحان "[1] وللشاعر أو الناثر والكاتب القدرة على التقاط مثل تلك الألفاظ الموحية بقوته الخالقة التى عبر عنها ابن الأثير بالفيض الإلهى.

رأى ابن الأثير فى مقياس التعبير الأدبى:

أما آراء ابن الأثير فى التأليف، وأعنى به تأليف العبارة الأدبية، أو النص الأدبى والفنى، فإنه يرى أن المقياس الأمثل فى التعبير الأدبى هو الذوق الأصيل والشعور العميق، والإحساس الصادق بقوة المعنى، ومتانة التعبير عن المعنى وبشروط الفصاحة والبلاغة، لا سلامته فى الترتيب المنطقى والنحوى وفقا للقواعد اللغوية، فالصحة العقلية والمنطقية التى تتوخاها قواعد اللغة ويقتضيها المنطق العقلى لا اعتبار لها وحدها – عنده – فى مقياس النقد والبلاغة: " فأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية "[2] . فالنحويون ينظرون إلى العبارة من ناحية صحتها نحويا ولغويا، وابن الأثير ينظر إليها من ناحية فصاحتها، وحسن بيانها، وموقعها فى نظم العبارة، وحسن وقعها فى السمع، قال: " وأما جمع المصادر فإنه لا يجئ حسنا، والإفراد فيه هو الحسن، ومما جاء من

---

(١) المثل السائر ١: ٥٠، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٦٩.

(٢) المثل السائر ١: ٢٨٨، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٥.

المصادر مجموعا "[1] كلمة " الفقود " فهى كلمة فصيحة لغة، وقبيحة بلاغة فى قول الشاعر العربى عنترة:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفقود

وذلك لأن استعمال هذه اللفظة " الفقود " غير سائغ ولا لذيذ، وإن كان جائزا لغة، ونحن فى استعمال الألفاظ واقفون مع الحسن والجمال، لا مع الجواز[2]، وهذا له أمر يرجع إلى حاكم الذوق السليم: " فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب فى فمه منها استعمله، وما لفظه فمه تركه "[3] فهو لذلك يرفض ضروب المعاظلة المعنوية التى يجرى فيها تقديم ما من حقه التأخير والعكس، وإن كان جائزا نحويا ولغويا، ويرفض كذلك ما تتداخل فيه الضمائر تداخلا يقربها إلى الإحالة والتعقيد مثل قول الفرزدق:

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

---

(١) المثل السائر ١: ٢٨٧، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٥.

(٢) المثل السائر ١: ٢٨٧، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٥.

(٣) المثل السائر ١: ٢٨٧، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٥.

فإن هـذا البيـت فـى نظـره مشـوه معقـد، ولا يدخـل فـى مجـال الفصاحـة: " لأن الفصاحة فى الظهور والبيان، وهو عار منها "[1]

فالعبارة الأدبية أو الفنية – عنده – تختلف عن العبارة العلمية، أو المنطقية فى أن العبارة الأدبية الفنية تحتمل أشـياء كثـيرة، وإيحـاءات متعـددة، وظـلال عديـدة، وإيماءات ورموز متنوعة بخلاف العبارة المنطقية أو العلمية فإنها تقصد المعنى مباشرة دون زيادة أو نقص، وهوأمر يقتضى ألا تحتوى العبارة الأدبية علـى زوائـد لفظيـة، وإن وافقت آراء النحويين وقياسات النحو والصرف، لأن " فـائدة وضـع الألفـاظ أن تكون أمثلة على المعانى، فإذا وردت لفظة مـن الألفـاظ فـى كـلام مشـهود لـه بالفصاحة والبلاغة، فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى "[2]، وأضاف قولـه: " وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لأنها ليست من شـأنهم[3] . ومـن هنـا استعمل الأدب الأسلوب المجازى بجميع فنونه التعبيرية المتعددة من تقديـم وتأخـير، وتورية ومبالغة، وتشبيه وكناية، ومجاز واستعارة، وإيجـاز وإطنـاب، ومـا إلى ذلـك من الأساليب المجازية فىالتعبير الأدبـى. وهـو لايكتفـى فـى مجـال تركيـب العبـارة الأدبية بالعلة النحوية، بل يعترف فيه بالعلل البلاغية والذوقية ومراعاة حسن النظم،

---

(١) المثل السائر ٢: ٤٦، والدكتور محمد زغلول سلام: ضيـاء الديـن بـن الأثـير وجهـوده فـى النقد ١٧٠.

(٢) المثل السائر ١: ١٦٤، والدكتور محمد زغلول سلام: ضيـاءالدين بـن الأثـير وجهـوده فـى النقد ١٧٤.

(٣) المثل السائر ١: ١٦٥، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثـير وجهـوده فـى النقد ١٦٥.

وهو يرى أن قياس اللغويين والنحويين لاينطبق على البيان " فأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية، أو نقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرى، وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها "[1]

وناقدنا الأديب الكاتب ابن الأثير لا يكتفى بمخاطبة العقل وحده بل يعمد إلى ضرورة التأثير على الطبائع والمشاعر والأحاسيس، وإثارة الانفعالات المختلفة بواسطة الخيال والتصوير، أو مخاطبة الحواس والإيهام والإيحاء والإيماء والتخييل، فدور المجاز فى التعبير الأدبى فى نظره هو " إثبات الغرض المقصود فى نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانا، ألا ترى أن حقيقة قولنا: زيد أسد هى قولنا: زيد شجاع، لكن الفرق بين القولين فى التصوير والتخييل وإثبات الغرض المقصود فى نفس السامع، لأن قولنا: زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرئ مقدام. فإذا قلنا زيد أسد تخيل عند ذلك صورة الأسد وهيأته، وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس "[2]، ولهذا كانت أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة[3].

---

(١) المثل السائر ١: ٢٨٨.

(٢) المثل السائر ٢: ٦٣، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٩.

(٣) المثل السائر٢: ٢٩، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٩.

فكلما قويت الصورة المجازية التعبيرية فى ذهن السامع ومخيلته، كلما قويت دلالتها التصويرية، وتمكنت من ذهنه ومخيلته تمكنا، فالتشبيه المضمر أبلغ من المظهر وأوجز....[1] .

فإذا كان الأمر كذلك، أى إذا كان الفن فى أساسه وحقيقة أمره محاكاة للطبيعة فإن التصوير فى التعبير الأدبى ضرب من المحاكاة، وهو عنصر أساسى ورئيسى فى كل الفنون الجميلة، وهذه المحاكاة تتلون بلون الفنان، وبشخصيته، وعواطفه، وموضوعه الأدبى الذى يريد محاكاته، ويستخدم الفنان، أو الأديب شاعرا كان أو كاتبا وناثرا المحاكاة للتعبير عن تجربة شعرية، أو قضية أدبية، أو دينية، أو اجتماعية، أو ذهنية، أو تجربة ذاتية، فهى محاكاة تختلف عن التقليد المجرد المطلق، وعلى أساسها يقوم الإبداع، ويتفاوت الفن والفنان، ويخلو المحاكاة الأدبية أو الصورة الأدبية من هذه الأهداف والمضامين، والأغراض تقل قيمتها الفنية والأدبية لدى بعض النقاد والبلاغيين ومنهم ابن الأثير، فضياء الدين بن الأثير لا يطلب من الشاعر مثلا بأن يصور ما يراه أو يخيله تصويرا فنيا دقيقا، وأن يقوم بنقل المشهد إلىالسامع كأنه يراه بكلتا عينيه، ويلمسه بكلتا يديه، وإنما عليه – بالإضافة إلى ذلك – أن يلائم، وأن يوفق بين ما تقع عليه الحواس وبين ما يخترعه، ويلونه بذوقه، وأحاسيسه، وبملكته الخالقة، فيأتى بالجديد وكأنه واقع مشاهد أمام السامع.

---

(١) المثل السائر ١: ٢٩٣، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٧٩.

موازنته النقدية بين امرئ القيس والنابغة الذبياني:

يقوم ضياء الدين بن الأثير بالموازنة النقدية بين بيتين من الشعر الجاهلي أحدهما يمثل أو يقدم لنا المحاكاة أو الصورة، والثاني يقدم لنا تجربة أو غاية، غير مجرد التعبير الأدبي عن الصورة الفنية، فذكر قول امرئ القيس وهو أمير الشعراء الجاهليين في محاكاة الصورة الأدبية، أي أنه رأى صورة فحكاها في المماثلة بينها وبين صورة أخرى، وذلك بقوله:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والخسف البالي

وذكر قول النابغة الذبياني في تجربته مع أصدقائه وإخوانه:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب[1]

فقال ابن الأثير: " قالوا هذان البيتان لايمكن المفاضلة بينهما لأنهما اشتملا على معنيين مختلفين، فهذا حسن في بابه، وهذا حسن في بابه، وأما أن يقال.. هذا أفضل من هذا فلا، لأن التفاضل إنما يظهر بالاشتراك في صفة واحدة. وهذا المذهب عندي فاسد، لأنه يؤدي ترك المفاضلة بين الجيد والرديء من الكلام اذا اختلف المعنى فيهما "[2] . وقال: " والمذهب الصحيح الذي يثبت على محك النظر أن المفاضلة بين الكلامين سواء كانا متوافقين في المعنى أو مختلفين "[3] .

---

(١) المثل السائر ٢: ٣٧٧، الطبعة الثانية، دار الرفاعي، الرياض.

(٢) الاستدراك ٤٩، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ٢٣٥.

(٣) المرجعين السابقين.

فابن الأثير يفضل بيت النابغة الذبيانى، ويرى أن هذين البيتين قد اختلفا فى المعنى: " ومعدلة الحكم تقضى بأن بيت النابغة أفضل، لأنا إذا نظرنا إلى لفظيهما ومعنييهما وجدناهما من جهة اللفظ سواء، إذ الأوصاف الأربعة التى تتعلق بالسبك قد تساويا فيها[1]، فلا يقال هذا أفضل من هذا من هذه الجهة، وأما من جهة المعنى فإن بيت النابغة أفضل، وذلك لأنه تضمن حكمة تعرف عن جهة الإخوان يتأدب بها الغر الجاهل، ويتنبه لها الفطن الأريب، والناس أحوج إلى معرفته من معرفة التشبيه الذى تضمنه بيت امرئ القيس، وغاية ما فيه أنه رأى صورة فحكاها فى المماثلة بينها وبين صورة أخرى، وليس ثم سوى ذلك، وبيت النابغة حكمة مؤدبة تستخرج بالفكر الدقيق "[2] .

رأى ابن الأثير فى أن الفن للحياة:

يرى ضياء الدين بن الأثير فيما ذهب إليه فى الفنون الأدبية أن الفن للحياة، وليس الفن للفن، كما كان كثير من علماء العرب فى عصره يرى رأيه، وخاصة ابن قتيبة، ولكن ليس معنى هذا أنه ابتعد فى قوله هذا عن قياس الأدب بمقياس

---

(١) الأوصاف الأربعة للنظم: ١ – أن تكون ألفاظ النظم واضحة ليست غريبة ولا وحشية ٢ – أن تكون ألفاظ النظم حلوة لذيذة فى الفم، سهلة ميسورة على النطق ٣ – أن تكون كل لفظة من ألفاظ النظم ملائمة لأختها ٤ ـ وألا يكون فى ألفاظ النظم وفى عباراته تقديم وتأخير.

(٢) الاستدراك ٥١، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٢٣٦.

الجمال والمتعة الجمالية واللـذة، أو بمقيـاس الـذوق الأدبـى، ذلـك لأن المتعـة الفنيـة الجمالية واللذة الأدبية المعنوية كانتا – بدون شك – من أهم عناصر مقاييس النقـد والبلاغة عند ابن الأثير. ففى مجال اللفظ فى الصورة الأدبية اهتم بما كـان لـه وقـع جميل ولذيذ على السمع، سواء كانت هذه اللـذة لـذة السـرور أو الألم، أو نشـوة البهجة أو الفرحة وأهم ما أشـار إليـه مـن صفـات اللفظـة الحسـنة السـهولة علـى اللسان، وعدم الثقل فى الآذان، وقلة الحروف قدر الإمكان، وكذلك يشـترط فـى مجال اللفظ ألا يكون قبيحا من الناحية الأخلاقية والسلوكية. وهو كثيرا مـا يحكـم – من غير تحفظ ولا شرط – على الشعر الجميل بأنه جميل يثير الطرب والنشـوة.. فكان إذا لاح له فى ديوان من الدواوين مثل تلك الألفاظ يجـد لهـا نشـوة كنشـوة الخمر، وطربا كطرب الألحان[1] . وليست اللفظة المفردة وحدها مصدر اللذة فـى النص الأدبى، بل التأليف بين مجموعة الألفـاظ فـى نسـق جميـل مصـدر آخـر مـن مصادرها مع التوافق والتوازن والتناسب وقوة التعبير، فالإحساس بـاللذة، وتـذوق المتعة فى النص الأدبى إنما يعتمد أساسا على هذه العناصر والمقاييس الأدبية والفنية.

---

(١) المثل السائر ٢: ٤٧، والدكتو محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقـد ١٦٩، والمثل السائر ١: ٥٠، والصفحة رقم ٦٩ من هذا الكتـاب، والدكتـور محمـد عبـد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبـى والمملوكى الأول، رسـالة دكتـوراه غـير مطبوعـة، رقـم ٢٢٦٧، مكتبـة جامعـة القـاهرة، وشعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجـرى، رسـالة ماجسـتير غـير مطبوعـة، رقـم ٢٢٦٢، مكتبة جامعة القاهرة.